

وحدة المنشأ البشري



وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَرْفُوسِكُمْ أَرْجُواهُمْ يَتَفَكَّرُونَ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَرٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الرُّوم / 21). أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنْيَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس / 60-61). قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَاهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ فَهَمَنْ كَانَ أَحَدًا (الكهف / 110). يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَءُ لِمَوْنَ بِهِ وَالْأَرْجَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (النَّسَاء / 1).

وإذا كان هذا هو منهج القرآن ونظرته للإنسان، فإنَّ المشكلة الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم هي مشكلة الاستعلاء العنصري، والصراعات القومية بين بني الإنسان، وممَّا يزيد المشكلة تعقيداً

وتؤرّخُ ماً أنَّ هذه المفاهيم شكّلت أساساً لصنع الفوارق الطبقية والعصبيات العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد، وبين الشعوب والأُمم، ثم زُوِّرت هذه المفاهيم الخاطئة، وبُنيت على أساسها دول ومفاهيم اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية... إلخ.

وبناءً على هذه المفاهيم والنظريات البعيدة عن مقاييس العلم والعقل والأخلاق، خاضت البشرية الحروب والصراعات الدموية الرهيبة.. حروب الاحتلال والاستعباد والسيطرة، ومورس الاستعلاء العنصري والإبادة العرقية في عصر تدعى أجياله أنّها تعيش في عصر العلم والمعرفة، وإنَّ أبسط قواعد العلم البيولوجية والسيكولوجية ومقاييس العقل تتحددُ عن النوع الإنساني كإنسان، كما تتحددُ الدراسات العلمية الأخرى عن أنواع الأحياء المُصاحبة للإنسان على هذه الأرض بأنَّ كلَّ نوع له خصائصه المشتركة بين أفراده.

والقرآن يثبت الحقيقة العلمية والأخلاقية والاجتماعية للنوع البشري، ويؤكدُ دلالة الناس أنَّهم أبناء آدم، وأنَّهم نشأوا من منشأ واحد، ولا فرق بينهم في التكوين البشري، وليس ما يشاهدونه من فوارق في اللغة واللغون إلَّا آية من آيات عظمة الخالق، ولا دخل لها في الأصل الإنساني.. ولا يصحُّ أن تكون اللغة أو اللون أو الجغرافية أو ما يكسبه الإنسان من مال أو سلطة أو جاه... إلخ، سبباً للاختلاف العنصري والعرقي والإثنبي، فضلاً عن اعتبارها مقاييساً للتعالي والتسلُّط والتمييز العنصري بين أبناء آدم، وأساساً متميزةً للدولة والسياسة.

والقرآن سجَّل هذه الحقيقة وخاطب بها العقل البشري.. خاطبه بقوله: ﴿وَمَنْ آتَاهُمْ خَلْقٌ
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَآخْذَتِ الْحُلُوفَ أَلْسُنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِآيَاتِ
رَبِّكُمْ عَالِمٌ بِهِنَّ﴾ (الرُّوم / 22).

وعندما نريد فهم هذه القضية في ثقافة القرآن وشرعيته وتقييمه العلمي للأصل البشري، سنجد في كل مخاطبة وتشريع وتعريف يتحددُ عن الإنسان كنوع يشتراك أفراده جميعاً بالصفة البشرية التي لا تقبل التجزئة العنصرية والتمييز العرقي والاستعلاء الإثنبي، فتراه يخاطب الإنسان في سبع آيات بقوله: ﴿يَا
أَيُّهَا آدَمَ لِيَفْهُمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ آدَمَ، قَالَ تَعَالَى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا مِنْ أَنْوَارِ رَبِّكُمْ عَنْدَكُمْ كُلُّ مَسْجِدٍ وَكُلُّ وَالْمُسْرِفُونَ
إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف / 31).

يَأَمْبَادِي آدَمَ إِمَّا يَأْمَنْتَهُ كُمْ رُسُلُ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَرَّ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الدَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الأعراف/ 35-36).

وَلَقَدْ كَرَمَ مِنْتَاهُمْ وَحَمَلَتْهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقَنَاهُمْ مِنَ الطَّيْرِ بَاتِرٍ وَفَضَّلَتْهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمْنَهُمْ خَلَقَنَاهُمْ تَفْضِيلًا (الإسراء/ 70).

ويُوضّح القرآن للإنسان وحدة الأصل والمنشأ، ويرفض التمييز العنصري المفتعل، واتّخاده أساساً ومقياساً للتفاضل.. سجّلَ هذا المبدأ العلمي بقوله: يَأَمْبَادِي آيَاتِنَا النَّاسُ إِنَّمَا خَلَقَنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَنَاهُمْ شُعُوبًا وَفَبَاءَتِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّمَا أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَرْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات/ 13).

القرآن في هذه الآية يريد أن يُفهم الإنسان أنّ الناس - رجالاً ونساءً - خُلِقُوا من نفسٍ واحدةٍ، وأنّ مقياس التفاضل بينهم هو (التقوى).. أي الاستقامة السلوكية والفكرية، فخيرهم خيرهم في سلوكه وفكره وعمله.. والقرآن في مخاطبته للناس بأُنْثِيمِ أبناء آدم، إنّما يريد أن يرسى قواعد الأخوة الإنسانية بين الناس الذين هم أخوة، وأبواهم آدم .. إنّه يريد أن يُشعرهم ويُحسّسهم بذلك لئلا يتعالى بعضهم على بعض، أو يستغلّه أو يحتقر وجوده، لذلك وَضَّحَ للناس أنّ الخالق العظيم كَرَمَ بني آدم جميعاً، وعليهم أن يجعلوا هذا التكريم سلوكاً عامّاً فيما بينهم، كأخوة متساوين في المنشأ وفي استحقاق التكريم.. إنّهم كَرَمُوا أنفسهم بالالتزام بمنهج الحق والخير والهدى الذي جاءهم من خالق الوجود.

وممّا يزيد المفهوم إيضاحاً وتأكيداً هو أنّ استعمال الخطاب: يَأَمْبَادِي آدَمَ جاء في أربع آيات متقاربة بعد الحديث عن خلق آدم وقصّته مع إبليس في أوليات سورة الأعراف، فخاطب الناس جميعاً بـ(أبناء آدم).

ويتحدّث القرآن عن الفروق الفردية في الناس والتفاوت في المستوى العقلي والجسمي وال النفسي والإمكان البشري.. يتحدّث عنه ويُوضّحه بأُنْثِيه تعbir عن حكمة الله في الخلق، وأُنْثِيه من أُسس التكامل في بناء المجتمع البشري، لئلا يُفْسِدُه بعضهم بالاستعلاء والتفوّق النوعي، فالمجتمع يحتاج بناؤه إلى مختلف الطاقات والكفاءات والإمكانات البشرية لسد حاجاته في مجال إنتاج الغذاء والدواء والبناء واللباس،

وتوفير الاختصاصات العلمية والعملية المختلفة... إلخ، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُمْ فَوْقَ
بَعْضِهِمْ دَرَجَاتٍ لِّيَتَذَكَّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَرَجُونَ﴾ (الزّخرف/ 32).

وما تَحدَّثَنا عنه في هذا المجال هو قبسات مما جاءت به الرسالة الإسلامية، وهي كافية لأن تُوضَّح للبشرية أنَّ الدِّين الإسلامي شريعة احترمت الإنسانية في الإنسان، وتعاملت مع الجميع على حدٍ سواء، وإنَّما يصنع الإنسان ذاته الاجتماعية، فيصوغ شخصيَّته الخير أو الشريرة، والمهدية أو الضالَّة، فيكون هو المسؤول عن الوضع الذي يضع نفسه فيه، وعلى هذه الأُسس بنى الإسلام مجتمعه ونطمه الاجتماعي وقوانيقه المنظَّمة للحياة البشرية بمختلف مجالاتها.. وعلى هذه الأُسس بنى الإسلام الحقوق والواجبات والتکاليف في المجتمع الإنساني، ولم تمل البشرية إلى هذه القيم والمبادئ إِلا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أعلنت عُصبة الأمم (الأمم المتحدة) وثيقة حقوق الإنسان في 10 كانون الأوَّل/ ديسمبر 1948م، وثبَّتت فيها أنَّ الناس جميعاً ينتمون إلى أصل بشري واحد وهم متساوون في المنشأ والتكوين البشري، ويجب أن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات، مع ما في هذه الوثيقة من نواقص وعيوب وإشكالات.